مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تشرين الأول سنة ١٩٥٦ — ٢٥ صفر سنة ١٣٧٦

# حافظ ابراهيم على سجيته

## الاسكندرية في ١٥ نيسان سنة ١٩٢٦ و ٢ شوال سنة ١٣٤٤

ذكرت في آخر مقالي السابق [1] عن حافظ ابراهيم أنه قال لي : سنراك في الإسكندرية قريباً ولعل ذلك يكون في العيد .

لقد وفى بما قال ، فزار الإسكندرية ومعه حسين الحسيني في عيد الفطر سنة ١٣٤٤ منتصف نيسان سنة ١٩٢٦ ، فقضينا معه نهاراً بطوله ووصلنا به ليلة طويلة . وكان حافظ في هذه النوبة مرسلاً نفسه على سجيتها في كل ما يقول ، وكثيراً ما يؤثر الدعابة على الجد ، ويرتاح لإيراد النكت والفكاهات البلدية مهما يكن نوع الحديث .

كان الموعد أن نجتمع في الصباح بقهوة نلسون ، فلما أقبلت عليه قال لي : خشيت ألاّ تهتدي الى المكان ، وأن يلتبس عليك نلسون بولسون ، فاللفظان

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ص ٣٥٣ مجلد ٣١



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

متقاربان ، على أن أحدهما قائد الأسطول الانكليزي والآخر الرئيس الأميركي . ثم قال : قل لي هل أفطرت ؟ فأنا لم أفطر بعد ، وسأطلب فطوراً لي ولك ، قلت : شكراً لك لقد أفطرت . قال ماذا أكلت ؟ قلت الخبز والجبن . قال هل كنت في القسم[1] ؟ فهذا أكل رجال البوليس . ما أعجب شأنكم يا أهل الشام ، تبلّون ثريدكم بماء الحمص بدلاً من ماء اللحم وترشون على وجهه حبات من الحمص[2] بدلاً من اللحم ، أهكذا يكون الثريد ؟ لست أدري أنا كلون مثل هذا الطعام تقشفاً وزهداً أم على سبيل الحمية ؟

والتفت يمنة فقال : أتريد أن تعرف رجلاً لم يأكل ولم ينم منذ ثلاثين سنة ؟ هذا هو إنه مقبل علينا ، فلما قرب قال له : أين كنت يا أستاذ ؟ أكنت تأكل ؟ فقال : لا والله ما أكلت ( ش ) . قال إذن كنت نائماً ، فقال : لا والله ما نمت ( ش ) . قال لي أرأيت ؟ هذا الشيخ عبد العزيز البشري صديقي منذ ثلاثين سنة ، لم أره مرة ـ وما أكثر ما أراه ـ إلا قال لي ما أكلت ( ش ) ولا نمت ( ش ) . ثم التفت إليه وقال : سأطلب لك فطوراً ، قال ما تشتهي نفسي الطعام ، قال ماذا وصف لك الأطباء ؟ قال وصفوا لي من المقبلات فراخ الطير ، وتأبى نفسي أن أجمع أمهات الطير بفراخها فضلاً عن إيلام الفراخ بالذبح لكي أشحذ شهوتي الى الطعام ، فما أقسى الإنسان وما أشد ظلمه . فقال حافظ : إذا عجز الأطباء عن علاجك ، أما في الحي عندكم واحدة من أولئك العجائز اللواتي عندهن لكل داء دواء ؟ فقال البشري عندنا عجوز في صدرها دائرة معارف ، تجيب قبل السؤال ، وتعالج جميع الأمراض ، وتسفه الأطباء وتنكر عليهم علمهم ومعرفتهم ؛ ولم يبق عليّ إلاّ أن أذهب اليها . وسأله حافظ عن ولديه فقال : هما بخير والحمد لله وياليتهما لم يأتيا لهذه الحياة التي كلها آلام ،

---

(١) يعني المخفر .

(٢) يريد بذلك ما يسمى في دمشق ( التسقية ) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأنا الجاني عليهما . فقال له حافظ : هون عليك فالحياة أهون من أن يهتم لها الإنسان ، رحم الله محمد البابلي فقد كان يسخر من الخطوب ولا يأسى على ما فاته أو خسره من عرض الدنيا ، أعسر مرة فاستدان مبلغاً من المال ورهن ملكاً له عند الدائن ثم باع الملك ؛ فسمعته يروي حديثاً موضوعاً في هذا الشأن - وكثيراً ما كان يضع الأحاديث على سبيل التظرف - فيقول : « خيركم من رهن ثم باع » قلت له ولماذا ؟ قال لأنه يقبض الثمن مرتين . هذا الرجل الذكي الألمعي المتوقد الذهن الوفي الذي كان حديثه بهجة النفوس ونزهة الخواطر ، أنكره المصريون يوم وفاته فلم يشيع جنازته غير بضعة أشخاص ، لم أر بلداً أقل وفاء وأكثر هضماً لحقوق رجاله من مصر .

وسكت حافظ متأثراً فاغتنم هذه الفرصة حسين الحسيني وقال لي : الأستاذ البشري صاحب مقالات ( في المرآة ) التي تنشر في ( السياسة الأسبوعية ) ، فأسرع البشري وقال بلهجة المستغني عن التقريظ والثناء : بعضها بعضها .

ثم التفت إليّ حافظ وقال : متى ضرب الافرنسيون دمشق ؟ قلت في تشرين الأول سنة ١٩٢٥ ، فقال : لا مؤاخذة إذا قلت لك ترجم فلقد نسينا نحن في مصر أسماء الأشهر المعرّبة وأضعنا استعمال الحساب العربي وأصبحنا لا نعرف الأشهر إلا بالأسماء الافرنجية ، فنقول ابريل ومايو ويونيو وهكذا . . . وهذا مما يؤسف له . ولكن دعنا من مسأله الحساب الآن وخبرني عن غرام السوريين بالثورات ، بالأمس ثرتم على الأتراك فأنكر عليكم المصريون ذلك وعدوا عملكم ضرباً من الخيانة ؛ أما أنا فقد عذرتكم ، لأن التركي في حكمه لا يطاق « عشرة [1] وأنا سيدك » هكذا هو ، وأنا اتفاظ (اغتاظ) من الأتراك لهذا الصلف العجيب . وما كدتم تتخلصون من الأتراك حتى ابتليتم

(١) مثل عامي مصري يصف الشحاذ التركي في مصر ، يطلب منك عشر بارات ويقول لك أنا سيدك ، يقابله في أمثال العرب « أنف في السماء واست في الماء »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالإفرنسيين وهم أدهى وأمر ، جمعوا الى الصلف الغرور والى الأنانية الحمق والى القسوة الظلم وهم أشد الناس خفةً وطيشاً وأكاد أقول جنوناً ، ولعل الله ابتلاكم بهم لشابهتهم لكم من بعض الوجوه ؛ على أن الشامي معروف عند المصريين بالبرودة فيقال برد شامي ، ولقد رأيت مرة بعض أصحابي مع شامي فقلت له ما الجامع بينكما ؟ فقال أبترد ببرودته . ولا شك في أن أقوى الشعوب اليوم في العالم ثلاثة وهم الإنكليز والألمان والإفرنسيون ، ولي فيهم قول مأثور صنفهم ووصفهم وصفاً صادقاً يصور على إيجازه كلاً منهم في نفسه وفي حكمه لغيره : فالانكليزي يعلم ويرحم ، والألماني يعلم ولا يرحم ، والإفرنسي لا يعلم ولا يرحم .

أما نحن وأنتم وبقية المسلمين فصائمون دايخون نائمون ، أضعنا ما بأيدينا ولا نكاد نعلم من أمور الدنيا شيئاً ، لقد خسرنا الدنيا ونطمع بالجنة في الآخرة ، وأخشى — إن تحقق أملنا — أن نحتاج للأوربيين حتى في الجنة ، لأنه لو طرأ عطل هناك على شيء من أدوات الترف والنعيم ، لما كان بين المسلمين من يقوم بإصلاحه ، ولاحتاجوا الى استدعاء بعض الأوربيين من النار .

وانتقلنا من قهوة نلسون الى مطعم على البحر ، وروى حافظ آنئذ خبراً غريباً قال : لما كان السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في باريز زارهما أمير عربي ، وذكر لهما أن ابراهيم بك المويلحي حصل على وثائق من عنده بحيلة ، وفي هذه الوثائق ما يغضب فرنسة على الأمير ، وأن المويلحي أنذره بأنه اذا لم يدفع له ألف ليرة ذهباً سيسلم الوثائق الى الحكومة الافرنسية ، وذكر الأمير أنه في ضيق لا يملك هذا المبلغ من المال ، ورجا منهما أن ينجياه من شر المويلحي ؛ فاستشاط السيد جمال الدين غضباً ، وكان حاد المزاج ، وقال : ينبغي زجر المويلحي وتأديبه واسترداد الوثائق منه . فقال الشيخ محمد عبده : لا فائدة من أخذه بالشدة بل ربما كان في الشدة ضرر ، فدع هذا الأمر إليّ لعلي أتمكن بالرفق واللين والحيلة من استرداد الوثائق . وبعد أيام زار الشيخ محمد عبده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابراهيم بك المويلحي في الغرفة التي هو نازل فيها وتكررت الزيارات بينهما حتى أنست صاحبة الدار بالشيخ ، فجاء يوماً ولم يكن المويلحي في الدار ، ففتحت له الغرفة وتركته وحده ، فأخذ الوثائق وقعد قليلاً ثم خرج وأسرع بها الى صاحبها الأمير ؛ فلما علم المويلحي بالأمر جن جنونه وذهب الى الشيخ وقال له : ان ما فعلته يا أستاذ خلاف الأمانة ؛ فضحك الشيخ وقال له : والذي فعلته أنت ما هو ؟ أمانة ؟

قال حافظ : رحم الله الشيخ فقد ملئ علماً وعقلاً ومروءة ، وقد فقدت مصر بوفاته ركناً عظيماً ، وكأنما الشاعر عناه ساعة دفنه بقوله :

قد خططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا

وكان المطعم مزدحماً جداً ، فلم نكد نفرغ من الطعام حتى غادرناه وركبنا عربة قاصدين قهوة نجلس بها بعد الطعام ، فلما نزلنا من العربة وقف حافظ ابراهيم وسلم على رجل من عامة الناس قصير القامة مكتنز الجسم زري الملبس وصافحه وهز يده طويلاً وهش له ، فقال له الرجل القصير : أنت نسيت أصحابك يا حافظ بك ، فأجابه : لا والله ولكن أين أراك ؟ فقال له : اسأل عني ترني .... فودعه ضاحكاً . ثم دخلنا قهوة صغيرة وأقبل بعد قليل بهي الدين بك بركات وقعد بجانب حافظ ابراهيم ، وجاء خادم القهوة ووجه الكلام لحافظ واحتفى به وسأله عما يريد من المشروب ، فقال له حافظ مالك تحتفي بي هل تعرفني ؟ قال : كيف لا أعرفك ، أنت شاعر مصر الكبير . قال حافظ : يعني العجوز ، قال : لا والله ما قصدت هذا ، فسر حافظ بذلك وضحك .

ونشأت في السماء سحابة وسقطت منها قطرات من المطر ، فرفع حافظ بصره الى السماء وقال : يعجبني قول الشاعر في مثل هذه الحال يعني سقوط المطر غير المنتظر :

عليّ وإلاّ ما بكاء الغمائم وفيّ وإلاّ ما نواح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب بثأر وهز البرق صفحة صارم

وردد الشطر الأول غير مرة وقال : إذا كان المطر في غير وقته فما هو إلاّ بكاء الغمائم عليه وعلى أمثاله من الشعراء .

ثم قال : والشيء بالشيء يذكر وان كان لأدنى ملابسة ، يعجبني قول شاعر عامي في مطر شديد مستمر وفيه دعابة ونكتة :

أفلعي بالله عنهم وارحميهم يا سما ما هم من قوم نوح إنهم من قوم لوط

وكان يردده مخاطباً السماء ويضحك .

وهيجت هذه اللمحات من الشعر حديث الشعر في نفسه فقال : جاءني وأنا في شبابي رجل من دعاة الشيخ أبي الهدى الصيادي ، وزين لي أن أذهب الى استانبول بقصيدة أمدح بها الشيخ وأكون ضيفاً عليه وأكون شاعره ، ومناني كل ما تصبو اليه النفس من عرض الدنيا ، وبقيت مدة بين المقدم والمحجم ، وكنت أجيب الدعوة ، ثم انصرفت نفسي عن الإجابة فاعتذرت ، وأحمد الله على أنني لم أسلك ذلك المسلك ، ولو فعلت لكنت مثل غيري من الشعراء المداحين الذين كانوا يتهافتون على أبواب الملوك والأمراء والرؤساء ، واذا سئل عنهم قيل من في الباب من الشعراء ، كأنهم من الخدم ، ولما أتيح لي أن أعنى بالشعر الاجتماعي ، وأشارك في نقل الشعر من الهزل الى الجد ومن المواضيع التافهة الى المواضيع ذات البال .

وعلى ذكر الشعر قال : دعيت مرةً لإنشاد قصيدة من شعري في حفلة جامعة ، فلما اكتمل الجمع وصعدت المنبر وشخص الناس بأبصارهم إليّ وحبسوا أنفاسهم مصغين منتظرين ما سأقول ، أنشدت البيت الأول من القصيدة كأحسن ما ينشد شاعر . ويظهر أنه كان بجانب مكان الحفلة اصطبل فنهق فيه حمار نهيقاً منكراً تردد صداه في قاعة الحفلة ، فقطعت الإنشاد حتى سكت الحمار فضحك الناس ، ولما عدت الى الإنشاد عاد الحمار الى النهيق ، فقلت للحاضرين : إما أنا أو هو ، فضجّ الناس بالضحك والتصفيق ، فقلت لهم : أنا جاد ولست

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بهازل ، لئن لم تسكتوه لأتركن المنبر ؛ ولما أنهي عن المكان أتممت إنشاد القصيدة .

ولم يكد يتم هذه الفكاهة حتى نهض وكان الوقت بعد الغروب بقليل . والذي لاحظته أن بهي الدين بركات منذ جاء الى أن انصرف ظل ساكتاً سكوتاً طويلاً .

وتركنا هذه القهوه وذهبنا لنتعشى في دار الدكتور أحمد قدري إجابة لدعوته ، فلما بلغناها بالغ صاحب الدار بالحفاوة بحافظ ابراهيم ، فكان يقول له عقب كل كلمة يقولها حافظ : أمرك سيدي ، تأمر ، مرني بما تشاء ، فلما طال ذلك على حافظ قال له على سبيل الدعابة : آمرك أن تسكت ، ما هذه المبالغة في الحفاوة ؟ قال : لأن الله اختصك بموهبة لا يختص بها إلا القليل النادر من عباده هي موهبة الشعر ؛ فقال حافظ : اسكت يا شيخ أنت عالم ، ثم قال سأختبر علمه في الطب ، فان جعل ناقتي تسير بي نحو المنزل الخالي شهدت له بالحذق .

وبعد قليل قدم للحاضرين ما يقدم عادة قبل الطعام من المقبلات ، فتناول حافظ كأساً جرع منها جرعة أغمض منها عينيه والتهم شيئاً من النقل يمسح به حرافة الجرعة ، وكانت التي تقدم المقبلات فتاة تركية وسيمة ، فأشار إليها بعض الحاضرين أن تجور على حافظ ابراهيم بمعاطاة الكؤوس ، فكانت تقدم له الكأس تلو الأخرى ، تعطيه الملأى وتأخذ الفارغة . فقال لها : بس ؛ فقيل له إنها لا تفهم العربية ، وتظاهرت هي بأنها لم تفهم ما قال ، فقال لها : ( نودر ) والتفت الى الحاضرين وقال : لقد كلمتها بالتركية ، وهل التركية غير ( در ودن وده ) وما إلى ذلك من الأدوات . و ( no ) أصبحت تركية بعد أن ذُنِّبت بـ ( در ) .

ثم قال لي أنشدني شيئاً من شعرك ، قلت : لا أعتني بحفظ شعري . قال أذكرتني بقولك هذا قصة سأقصها عليك ، لما كنتُ في المدرسة اتفق أن جاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مفتش ونحن في درس اللغة الافرنسية وبدأ يختبر معرفة التلاميذ بها ، فاستدعاني إليه وقال لي «Parlez-vous français» فأشرت إليه برأسي ( لا ) فقال لي : ولا ( non ) يا شاطر . أتريد أن تعمل مثلي لست بتاركك ، ولك عليّ أن أجبر لك برأيي من غير مواربة . فقرأت له قصيدة عنوانها ( شهيد ايرلنده ) أولها :

أبى رق الحيـاة فمات حرا وأبلغ نفسه في ذاك عذرا

فقال بعد أن سمع البيت الأول « طيب يا واد » وكرر هذه الجملة عقب كثير من أبيات القصيدة ؛ فلما انتهيت قال اسمع : « لن تكون كالمتنبي ولكنك كالبحتري » فشكرته وحملت ما قاله على المبالغة في المجاملة .

وكأنما تنبه في نفسه حديث الشعر والأدب ، فذكر كتاب الأغاني وقرظ طبعته الجديدة وقد صدر منها الجزء الأول ، وقال لا أدري متى ينتهي طبع بقية الأجزاء لأننا في دار الكتب ندقق في تحقيق الأصل وتصحيحه وقد تبقى حروف الملزمة مصفوفة في المطبعة شهراً أو أكثر لأنه إذا توقف المصححون في دار الكتب بشيء عرضوه على أهل العلم الثقات كأحمد تيمور باشا وأضرابه .

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب وأثنى على كتابه ( المكافأة ) وقال : لقد استظهرت كثيراً من كتاب المكافأة .

وذكر الجاحظ وأثنى عليه كثيراً وقال : إنه بليغ هذه الأمة وأحسن البلغاء بياناً ، فضلاً عن سعة العلم ورجاحة العقل وخفة الروح ، وروى عن الجاحظ هذه الحادثة قال : « وضعت حلقة من حديد في النار حتى صارت حمراء ، ثم ألقيتها على الأرض ووضعت في وسطها نملة ، ووقفت أنظر ما تصنع النملة ، فمشت النملة إلى جهة الشرق فلما أحست بوهيج النار انكفأت الى جهة الغرب فلما أحست أيضاً بحر النار عادت وقصدت الى كل جهة من جهات الحلقة فلما لم تجد مخرجاً وقفت في أبعد مسافة عن النار » قال حافظ فانظر الى الجاحظ كيف عبّر عن مركز الدائرة الذي لم يكن معروفاً وقتئذ بأبعد مسافة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأورد من دعاباته وفكاهاته ما يلي قال : سأل بعض الناس الجاحظ أن يعطيه كتاب توصية الى بعض العمال ، فدفع الجاحظ اليه كتاباً مختوماً ، وبدا لهذا السائل أن يفض الكتاب فاذا فيه : « هذا الكتاب مع من لا أعرفه ، وقد كلمني فيه من لا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وان رددته لم أذمك » فلما سئل عن ذلك قال : هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به ، فقال المكتوب لأجله : أم الجاحظ عشرة آلاف في عشرة آلاف ... وأم من يسأله حاجة . فلما استنكر منه ذلك قال : هذه علامتي فيمن أشكره . فضحك الجاحظ . كان حافظ يروي هذه القصة بفمه وبيديه معاً ويغرب في الضحك .

وانتقل الى الكلام عن سعد باشا زغلول واستقلاله بعظائم الأمور ، وقيامه بالشؤون الهامة في الحزب والحكومة ومجلس النواب ، حتى إذا ذلل الصعاب ولم يبق غير الأمور اليسيرة ترك كرسي الرياسة واستدعى نائبه فقال « تعال يا نحاس » قال حافظ ذلك وقام من كرسيه نصف قيام محاكاةً وتمثيلاً لسعد .

وسألني عن الأستاذ محمد كرد علي فقلت له : إنه بخير ويذكرك بالخير ، فقال : هذا رجل عظيم .

ثم سألني عن الشيخ فؤاد الخطيب وقال : إنه شاعر ؛ فمد الألف ووقف على الراء بقوة .

وكأنما استبطأ الدعوة إلى المائدة فقال :

قد جن أصحابك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائده

ثم قمنا الى المائدة فبدأ يهدر بكلامه هدراً وألهاه الكلام عن الطعام وتندر على المصريين والشاميين ، قال : للمصري فهم عجيب ومنطق أعجب ، وقف مرة فلاح مصري أمام قاضٍ في المحكمة ، فسأله القاضي الأسئلة المعتادة عن الاسم والسن والحال والصنعة والبلد ، فكان جوابه عن سنه « سنة زرع أفندينا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القطن» فزاده القاضي سؤالاً وقال «متزوج أنت أم عزب» فقال : «نعم يا أفندم متزوج مَرَّة» فنهره القاضي وقال : ما هذا الكلام الفارغ ، وهل يتزوج أحد غير امرأة ؟ فقال «نعم ... أختي ... أختي متزوجة راجل» وحملق في وجه القاضي كمن أقام الحجة الدامغة . وكان حافظ يغرب في الضحك من جواب المصري ويقول أجاب جواباً لا يرد .

وقال : أراد أن يسافر فلاح مصري من قريته إلى القاهرة ، فجاء الى المحطة وسأل قاطع التذاكر عن الأجرة ، فذكر له تفاوت الأجرة باختلاف الدرجات ، وزيادة في الإيضاح قال له : يعني فوق أغلى من تحت ، وتحت أرخص من فوق ؛ فقال له الفلاح : احفر لي أسفل من تحت وخذ مني أرخص ، ثم قال : لا تظن أن الشامي يقصر عن المصري في هذا الباب ولعله يفوقه ، اسمع هذه القصة : جاء مرة رجل شامي الى الاسكندرية في طريقه الى القاهرة ، فركب القطار من الاسكندرية ومعه عباءته وخرجه ، فسار القطار ولما وقف في المحطة الأولى بسيدي بشر ، ثار الشامي من مكانه وعلى كتفيه العباءة والخرج وهمّ بالنزول وسأل حارس القطار : وصلنا مصر سيدي ؟ فأجابه : كلا أين أنت من مصر عد إلى مكانك . وكان كلما وقف القطار على محطة فعل الشامي ما فعله في محطة سيدي بشر . فلما ضاق به الحارس قال له : مالك يا أخي ، اقعد في مكانك ، هل مللت من الركوب ؟ فقال له الشامي : إي والله سيدي مللت أريد أن أصل إلى مصر . فقال له الحارس : إذا كنت مللت ولم تمض عليك ساعات في القطار ، فماذا أقول أنا ، أنا في هذا القطار من ثلاثين سنة . ففتح الشامي فمه وجحظت عيناه وقال للحارس : «من أي محطة أنت راكب سيدي ؟»

والتفت يمنة ويسرة ونظر تجاهه فوجد القاعدين مشغولين بالطعام ، فرفع بصره الى الفتاة التركية الواقفة على المائدة وقال لها : (بو — وأشار إلى القاعد عن يمينه — غيبوت ، وبو — وأشار الى القاعد عن شماله — غباوت ، والضيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— وأشار إلى نفسه — ضايع در ) فهج الحاضرون بالضحك وقالوا له : ختمت اللغة التركية ؛ وغلب على الفتاة الضحك حتى كاد ينزلق صحن الطعام من بين يديها على كتفيه ، فقال : قلت لها أطعميني ولم أقل لها أطعمي ثيابي . وصبت له في كأسه ماء فظنه من الأشربة الحارة فقال لها : أنا مسلم[1] صبي لا أشرب غير الماء والأشربة الحلوة .

وكان الليل قد مضى أكثره فانصرف الحاضرون ولسان حالهم ينشد :

نود أن سواد الليل دام لنا وزيد فيه سواد القلب والبصر

***

## ذيل

## ( في ما رُوي لي من أخبار حافظ ابراهيم ولطائفه )

حدثني حسين الحسيني قال : حافظ ابراهيم عصبي المزاج يكره الحلاقة ولا يصبر على الحلاق وعمل أدواته في الشعر ولا سيما المقص منها ، ولا يكاد يذهب إلى الحلاق إلا اضطراراً ، وقع يوماً بحكم الاضطرار بين يدي حلاق ، فأعمل برأسه المكنة والمقص والموسى ثم انحاز إلى قفاه وبدأ مقصه يجول ويسفسق علواً وسفلاً ، وطال الأمر على حافظ ابراهيم ، فقال له : متى تنتهي ؟ قال لم يبق إلا جهة الشمال . فنهض حافظ ونزع الفوطة من عنقه واتجه نحو الباب وهو يقول : نكتفي الآن بجهة اليمين وفي المرة الآتية تكمل الباقي في جهة الشمال .

---

(١) يريد بالمسلم الصبي : المسلم الجلد التقي . وقد كنت أظن هذا القول مما يتمثل به في مصر ، سألت عنه مرة الدكتور عبد الوهاب عزام فقال لي : لا أعرفه قلت سمعته من حافظ ابراهيم ، قال : كان حافظ يضع الأمثال لنفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال : المشهور عن حافظ أنه جواد كريم ، والواقع كذلك وليس للمال قيمة في عينه ، سهر مرة في القاهرة يلعب الطاولة مع أصدقائه ، فلما طال أمد اللعب نبهه بعض الحاضرين الى أن آخر قطار يسير من القاهرة إلى حلوان ( حيث يسكن حافظ ) قد دنا وقته ، فلم يلتفت إليه حافظ حتى إذا انتهى من اللعب بعد فوات وقت القطار طلب الى الشركة أن تجهز له قطاراً خاصاً من القاهرة الى حلوان ، وكان الأمر كذلك ودفع الأجرة الضخمة المعينة لمثل هذه الحال .

وقال : سألته مرة كيف ينظم الشعر وكم بيتاً يقدر أن ينظم في اليوم ؟ فقال : ليس هناك قاعدة ثابتة ، فقد تمضي الأيام والشهور ولا أجد نفسي تنشط لقول الشعر ، وقد يستعصي عليّ إذا طلبته في مثل هذه الحال فلا أقدر على نظم بيت واحد أرتضيه ولو حاولته طول يومي ، أما اذا ارتاحت نفسي الى الشعر وكان الباعث عليه بلائم هواي فأقول الأبيات في اليوم الواحد من غير كد ولا جهد .

وقال : يظن بعض الناس أن حافظ ابراهيم من المولعين بالشراب ، وليس كذلك ، وإنما هو مولع بالسيكار وبأجود أنواعه ، ولو نفدت ذخيرته منه وقيل له ثمن كل واحد جنيه لاشتراه .

وقال : قال لي حافظ ابراهيم : كان لأولى زلات الصبا التي كانت مني ، تأثير عجيب في نفسي ، فقد خشيت أن يعجّل الله لي العذاب كأن يخسف بي الأرض أو يسقط عليّ كسفاً من السماء ، وخيّل إليّ أني إذا ظهرت بين الناس لم يخف عليهم ما اقترفت من الإثم ، فبقيت واجماً ولزمت الدار مدة لا أخرج منها إلا لأمر لا بد منه ، فلما توالت الأيام أطمعني حلم الله ورجاء عفوه .

وحدثني الشيخ نؤاد الخطيب قال : كانت قهوة سبلنددبار في القاهرة أشبه بندوة لكثير من الأدباء يجلسون بها في العشايا ويتناشدون الأشعار ، وكان رئيس القوم في تلك الندوة اسمعيل صبري باشا شيخ الشعراء المشهور بنفوذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بصره ورهافة سمعه وصحة ذوقه في نقد الشعر يعرض الشعراء عليه قصائدهم ومقطعاتهم ويسألونه رأيه فيها ؛ وكان حافظ يحضر تلك العشايا ويشيع فيها المرح بفكاهته ودعابته ، وحافظ مشهور بتثقيف شعره وإعادة النظر فيه وعرضه على إخوانه والإصغاء إلى مآخذهم عليه ، جاء ذات عشية وأنشد قصيدة سياسية رنانة في وداع اللورد كرومر واستقبال خلفه السير غورست مطلعها :

بنات الشعر بالنفحات جودي　　فهذا يوم شاعرك المجيد

فاستحسنها اسمعيل صبري باشا وكان مما أخذه عليه بها لفظة ( ارتفع ) في قوله :

إذا ارتفع الصياح فلا تلمنا　　فإن الناس في جهد جهيد

قال وما أقول مكانها ؟ قال هذا ليس من شأني ، عليّ أن أنتقد وعليك أن تتلافى . فقال حافظ : موعدنا عشية غد ، وجاء في الوقت المعين ووجهه يطفح بشراً وأنشد :

اذا اعلولى الصياح فلا تلمنا　　فإن الناس في جهد جهيد

فقال صبري باشا : أحسنت ما شئت ، فكان حافظ يكرره ويكاد يرقص طرباً .

وقال الشيخ فؤاد : كنت ليلةً وحافظ ابراهيم سائرين في أحد شوارع القاهرة ، فسمعنا وراءنا وقع حوافر خيل وإذا بعربة فخمة تقف بجانبنا ، وإذا بالراكب فيها السيد توفيق البكري ينادينا انركب معه ، فقال له حافظ : إلى أين ؟ قال إلى الدار حيث نسمر معاً هذه الليلة . قال حافظ : رحم الله من قال ( جوعٌ وأحاديث ) نحن لم نتعش بعد ، فهل تعشيت أنت ؟ قال نعم وهذه خمسة جنيهات لعشائكما وسأسبقكما إلى الدار ، فتعشيا في أحد المطاعم ثم اقصداني في الدار فأنا بانتظاركما ، قال ذلك وذهب ، وبقيت مع حافظ واختلفنا في أي المطاعم نأكل فالمبلغ يخولنا أن نأكل في أفخم المطاعم ثم نركب الى دار السيد البكري أفخم العربات ، وشرع حافظ يبذر في القهوة والمطعم بين ثمن المشروب والمأكول وحلوان الخدم وثمن السيكار ، وفكاهاته لا تنقضي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الواحدة إلا بأخف منها حتى لم يبق من المبلغ شيء حتى ولا أجرة عربة وكاد الليل ينتصف وبقي السيد البكري بانتظارنا وما أشك في أنه هجانا .

وقال الشيخ فؤاد : لحافظ ابراهيم قصيدة طويلة في (عمر بن الخطاب) هي أطول قصيدة قالها ، وهي من عيون شعره تشتمل على سيرة عمر أولها :

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها أني إلى ساحة الفاروق أهديها

وكان حافظ في سنة ١٩١٧ آخذاً في نظم هذه القصيدة لم يفرغ منها بعد ، وكنا كلما اجتمعنا إذ ذاك نركب عربة ويقول حافظ للسائق : اذهب بنا حيث شئت ولكن خلصنا من الضجيج ، ويبدأ حافظ ينشد هذه القصيدة من أولها إلى المكان الذي انتهى إليه ، وكان من أحسن خلق الله إنشاداً للشعر ، فاذا أسرع السائق قال له حافظ «يا أسطه واحده واحده» يعني خفف السير . وركبنا مرة وأخذ حافظ على عادته ينشد القصيدة ، وأسرع السائق بعد برهة فقال له (يا أسطه واحده واحده) وتكرر ذلك عدة مرات ففمزت السائق في ظهره وقلت له أما تسمع ما يقوله لك ، فالتفت إليّ وأشار الى حافظ بعينه وفمه وكأنه يقول : هذا مخبش وانت مالك ؟ فضحك حافظ طويلاً .

وحدثني المرحوم عمر الفاخوري قال : لما زار حافظ ابراهيم بيروت ذهبت مع جماعة من الأدباء في ضحوة من نهار للسلام عليه ، وكان كل واحد منا يذكر له اسمه حين يصافحه ، ولما انقضى وقت الزيارة نهضنا للانصراف فودع الجميع وطلب إليّ أن أبقى ، فسررت لإيثاره لي على جميع من كان معي ، وتلاحق المسلمون عليه فكان كلما انصرف جماعة منهم أستأذنه بالانصراف فيستبقيني ، ثم قال لي في آخر مرة هممت بالانصراف : نتغدى معاً يا أستاذ ، فازداد سروري لهذه العناية الخاصة ، وبقيت معه وتركت عملي في الحكومة ذلك النهار ، وتغدينا معاً وهو يرسل النكتة تلو النكتة ثم شربنا القهوة واستأذنته بالانصراف بعد أن شكرته بأساليب متعددة ، فوقف وقال لي : «شرّفت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا أستاذ ، آنست يا أستاذ ، هل يمكنني أن أعرف الاسم الكريم ؟ » فبهتُّ وكدت أصعق ، وقلت في نفسي : يدعوني ، ويمزم عليّ ، ويؤثرني على جميع من زاره ولا يعرف من أنا ، وغالبت نفسي وقلت له ( عمر الفاخوري ) فقال : أهلاً وسهلاً يا أستاذ عمر ، أنا والله سعيد بلقائك ، يا ليتني عرفتك قبل الآن ، إذن لقلّ عتبي على الزمان ، أتدري لماذا احتفيت بك عن غير معرفة ؟ قلت لا ، قال اسمع إذن ، كنت أظن أن الله لم يخلق أقبح مني ، فلما رأيتك خاب والحمد لله ظني ، ووجدتك مثلي إن لم تكن أشد قبحاً ، فكيف لا أكون سعيداً بلقائك ، فضحكت وضحك .

خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net